ضوضاء

بقلم: وليد عارف الرّشيد

كَانَ أَمْرًا اعْتِيَادِيًّا فِي حَيِّنَا أَنْ تَصْدُرَ بَيْنَ الْحِينِ وَالْآخَرِ أَصْوَاتٌ مُزْعِجَةٌ مِنْ بَيْتِ سِيَادَتِهِ، وَدُونَ أَنْ يَكُونَ لِحُرْمَةِ الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ وَالأَشْخَاصِ أَيَّةُ قِيمَةٍ تُذْكَر .

فَتَارَةً كَانَ صِيَاحًا دَاخِلِيًّا، مَجْهُولَ الأَسْبَابِ وَالْمُسَبِّبِينَ، وَتَارَةً صُرَاخًا مُوَجَّهًا إِلَى الْخَدَمِ وَالْحَشَمِ ...وَغَالِبًا كَانَ تَأْنِيبًا شَدِيدَ اللَّهْجَةِ (بِعِبَارَاتٍ دَاخِلَ أَقْوَاسٍ) لِلْمُرَافِقِينَ، الَّذِينَ كَانَ مَوْقِعُهُمْ فِي مَدْخَلِ الْبِنَاءِ. وَقَدْ آنَسْنَا هذا وَتَقَبَّلْنَاهُ مَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ كَأَمْرٍ وَاقِعٍ (وَكَأَنَّ بِيَدِنَا أَلَّا نَفْعَل !!!)، رَاضِينَ بِمَا قَدَّرَ الله.

أَمَّا الْيَوْمَ، فَقَدْ كَانَ اسْتِثْنَائِيًّا بِكُلِّ الْمَعَايِيرِ. فَالتَّارِيخُ يُشِيرُ لِإِحْدَى لَيَالِي رَمَضَانَ، وَالْوَقْتُ بُعَيْدَ السُّحُور، وَقَدْ أَمَّ الْجَمِيعُ فُرُشَهُمْ أَوْ كَادُوا؛ لِيَنَالُوا قِسْطًا مِنَ النَّوْمِ قَبْلَ تَوَجُّهِ كُلٍّ مِنْهُمْ إِلَى مَيْدَانِ خِدْمَتِه. وَحَتَّى سَبَبُ الضَّوْضَاءِ الْيَوْمَ كَانَ مُخْتَلِفًا، فَمَصْدَرُهَا كَانَ مِنْ شُرْفَةِ بَيْتِ سِيَادَتِهِ، وَمُصَدِّرُهَا كَانَ مُدَلَّل

الْبَيْتِ الَّذِي لَمْ يَتَجَاوَزْ الثَّالِثَة مِنْ عُمُرِه. فَقَدِ انْفَجَرَ بِالْبُكَاءِ، وَبِسَفَهٍ قَلَّ نَظِيرُهُ .

خَرَجَ الْجَمِيعُ يَسْتَطْلِعُونَ الْأَمْرَ، ثُمَّ يَنْتَظِرُونَ إِيذَانًا مِنْ سُمُوِّهِ بِأَنْ يَمُنَّ عَلَيْهِمْ بِالنَّوْمِ، وَهُوَ يَأْبَى، وَيَعْلُو زَعِيقُهُ .. وَهُمْ (وَمَعَهُمْ نَحْنُ بِالطَّبْعِ) عَلَى جَمْرِ الانْتِظَارِ وَالْمَرَارَةِ يَصْطَلُون!...

وَلُوحِظَتْ فِي الْأَثْنَاءِ حَرَكَةٌ دَؤُوبَةٌ غَيْرُ اعْتِيَادِيَّةٍ فِي مَبْنَى سِيَادَتِه. فَكُلُّ طَاقَمِهِ اسْتَنْفَرَ، وَهَبَّ لِمَدِّ يَدِ الْعَوْنِ وَلَكِنْ هَيْهَات .

ثُمَّ ظَهَرَتْ مُفَاجَأَةٌ لَمْ تَكُنْ بِالْحُسْبَانِ صَدَمَتِ الْجَمِيعَ.! فَقَدْ شَاهَدَ أَغْلَبُ الْقَوْمِ رَجُلًا يَرْتَدِي ثَوْبَ النَوْمِ (الروب)، وَهُوَ يَحْمِلُ الطِّفْلَ يُهَدْهِدُهُ قَاطِعًا الشُّرْفَةَ الْوَاسِعَةَ جِيئَةً وَذَهَابًا ..

نَعَمْ .. لَعَمْرِي هُوَ! بَلْ أُقْسِمُ إِنَّهُ هُوَ بِجَلَالَةِ قَدْرِه! سِيَادَتُهُ (بِلَحْمِهِ وَشَحْمِه) هُوَ مَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَ الطِّفْلِ، وَقَدْ كُنَّا لَا نَكَادُ نُشَاهِدُ سِيَادَتَهُ إِلَّا قَلِيلًا عَبْرَ وَسَائِلِ الْإِعْلَامِ، وَنَادِرًا، عِنْدَمَا يَخْرُجُ أَوْ يَدْخُلُ سَيَّارَتَهُ بِحِمَايَةِ جَمْهَرَةٍ مِنْ الْعَضَلَاتِ الْمَفْتُولَةِ، فَنَلْمَحُ طَيْفَهُ مِنْ بَيْنِ الْجُمُوعِ . لكِنَّنَا الْيَوْمَ نُشَاهِدُهُ مُبَاشَرَةً وَدُونَ حَوَاجِزَ بَشَرِيَّةٍ أَوْ آلِيَّة. نَعَمْ. وَقَدْ أَقْلَقَهُ بُكَاءُ طِفْلِهِ الْمُعْجِزَة، حَتَّى تَفَتَّقَ ذِهْنُ سِيَادَتَهِ الْأَلْمَعِيِّ عَنْ فِكْرَةٍ جَهَنَّمِيَّةٍ , يُسْكِتُ بِهَا سَيِّدَنَا الصَّغِير! . أَثْنَاءَ هذِهِ التَّطَوُّرَاتِ، كَانَ يُمْكِنُ وَبِوُضُوحٍ مُلَاحَظَةَ الْكَمِّ الْكَبِيرِ

مِنَ الإِرْهَاقِ وَالنُّعَاسِ وَالتَّمَلْمُلِ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ الْمُنْتَشِرِينَ عَلَى الأَسْطِحَةِ وَالشُّرُفَاتِ. وَقَدْ كَانَ الظَّلَامُ قَدْ شَرَعَ بِالرَّحِيلِ، وَبَدَأَ قُرْصُ الشَّمْسِ يُهَيِّئُ إِطْلَالَتَهُ، وَكُنْتُ لِأَسْتَطِيعَ أَنْ أُقَدِّرَ حَجْمَ الآمَالِ وَالأُمْنِيَاتِ فِي وُجُوهِهِمْ بِتَوَقُّفِ الطِّفْلِ الْمُنْفَجِرِ عَنْ الْبُكَاءِ . وَلَقَدْ سَمِعْتُ جَارَنَا فِي الشِّقَّةِ المجَاوِرَةِ، ذَلِكَ الرَّجُلَ المسِنَّ المتَدَيِّنَ الهَادِئَ، وَهُوَ يَجْأَرُ بِالدُّعَاءِ : " اللهُمَّ هَدِّئْ مِنْ رَوْعِهِ .. وَعَافِهِ .. وَامْنَحْهُ الرَّاحَةَ وَالسَّكِينَةَ وَالرِّضَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ " وَالكُلُّ يُؤَمِّنُ خَلْفَه..!

لكِنَّ سِيَادَتَهُ أَبَى إِلَّا أَنْ يَحُلَّ المشْكِلَةَ بِطَرِيقَتِهِ الخَاصَّةَ المبْتَكَرَة ..! فَأَمْسَكَ بِمَفَاتِيحِ سَيَّارَتِهِ الفَخْمَةِ، وَأَخَذَ يُوَجِّهُ جِهَازَ التَّحَكُّمِ عَلَيْهَا، وَيُشَغِّلُ أَجْهِزَةَ الإِنْذَارِ ذَاتَ الأَصْوَاتِ الَّتِي تَكَادُ تُوقِظُ أَهْلَ القُبُورِ..!! ثُمَّ يُوَجِّهُ فِلْذَةَ كَبِدِهِ المؤَقَّرَ لِيُشَاهِدَ وَيَسْمَعَ وَيَأْنَسَ وَيَلْهُو .. فَيَصْمُتَ الوَلَدُ، فَيُخْرِسُ الأَبُ سَيَّارَتَه، فَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَعُودَ الطِّفْلُ لِلْبُكَاءِ وَعَلَى مَوْجَةٍ صَوْتِيَّةٍ أَعْلَى، فَيَعُودَ الأَبُ الْحَنُونُ العَطُوفُ لِمِثْلِ مَا بَدَأَ بِه، وَالْكُلُّ يُرَاقِبُ فَاغِرًا فَمَهُ، وَيَدْعُو وَ... (وَلكِنْ كلٌّ بِقَرَارَةِ نَفْسِهِ طَبْعًا)..

اسْتَمَرَّتِ الأَحْدَاثُ العَجِيبَةُ هذِهِ، حَتَّى جَاءَ الفَرَجُ وَالْحَلُّ الدَّائِمُ النَّاجِعُ بَعْدَ مَا يَرْبُو عَلَى سَاعَتَيْنِ مِنْ المعَانَاةِ الجَمَاعِيَّةِ، حِينَ لَمْ

يَعُدْ هُنَاكَ مُتَّسَعٌ لِتَجَرُّعِ النَّوْمِ وَالرَّاحَةِ . فَهَا هِيَ سيارةٌ فارهةٌ تَصِلُ إِلَى الْمَكَانِ، وَخَرَجَتْ مِنْهَا سَيِّدَةُ الْبَيْتِ الْمَصُونُ وَبَعْضُ صَحْبٍ بِرِفْقَتِهَا.. نَعَمْ .. لَقَدْ وَصَلَتْ وَوَصَلَ مَعَهَا الْفَرَجُ، وَالْمُشْكِلَةُ حُلَّتْ نِهَائِيًّا بِقُدُومِهَا المِبَارَكِ الْمَيْمُون!

تَنَاهَى إِلَى أَسْمَاعِنَا فِيمَا بَعْدُ أَنَّ السَّيِّدَةَ الفَاضِلَةَ كَانَتْ فِي مَأْدُبَةِ سحُورٍ رَسْمِيَّةٍ عَلَى هَامِشِ مُؤْتَمَرٍ تَرْعَاهُ سِيَادَتُهَا، وَأَعْتَقِدُ أَنَّنِي كُنْتُ قَدْ قَرَأْتُ شَيْئًا عَنْ هذَا المؤْتَمَرِ مِنْ خِلَالِ الْلَافِتَاتِ الَّتِي تَوَزَّعَتْ فِي أَرْجَاءِ المدِينَةِ، وَالَّذِي انْعَقَدَ تَحْتَ شِعَار : " الْقَضَاءُ عَلَى الضَّوْضَاءِ , جُزْءٌ مِنَ الْحِفَاظِ عَلَى الْبِيْئَة!"